

السياسة التعليمية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

في مواجهة السياسة التعليمية الفرنسية

*The educational policy of the Algerian Muslim Scholars Association**In the face of French educational policy*

نويجي سناء*
جامعة الحاج لخضر باتنة 1 (الجزائر)
Sana.nouidji@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2022/12/18 تاريخ القبول: 2023/09/10

المخلص:

سعت السلطات الفرنسية منذ بداية احتلالها للجزائر جاهدة للقضاء على الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري، متبعة في ذلك عدة أساليب وسياسات وقوانين، كما عملت على تبني سياسة تعليمية يستفيد منها الأقلية فقط في محاولة لتكريس سياستها الثقافية التغريبية، فقامت بتوظيف المدرسة لهذا الغرض. ومع بداية ثلاثينات القرن العشرين ظهرت حركة إصلاحية تمثلت في جمعية العلماء المسلمين لعبت دورا بارزا في مواجهة هاته السياسة الفرنسية، تحمل في برنامجها الحرص الشديد على تمسك الجزائريين بالقيم الإسلامية والتقاليد العربية، وأولت عناية هامة للتعليم خاصة في الكتاتيب والمدارس القرآنية ووضعت له مناهج وأسس خاصة تتماشى ومقومات المجتمع الجزائري؛ فحدثت المفارقة بين السياستين في الطرق والأسس والمناهج والأهداف المسطرة. وهذا ما سنتعرض له في هاته الورقة البحثية من خلال تتبع مراحل السياسة التعليمية لجمعية العلماء ومقارنتها بنظيرتها الفرنسية بالاعتماد على المنهج التاريخي، لذا يجب تسليط الضوء على دور مدارس الجمعية في مواجهة السياسة التغريبية الفرنسية وكذا مساهمة الأولى في خلق نخبة مشبعة بروح الكفاح والجهاد لتحقيق الاستقلال.

كلمات مفتاحية: المدرسة . التربية التعليم . الهوية الوطنية . السياسة التعليمية.

Abstract:

Since the beginning of its occupation of Algeria, the French authorities have striven to eliminate the cultural identity of Algerian society, following several methods, policies and laws. In the twentieth century, a reform movement emerged, represented by the Association of Muslim Scholars, which played a prominent role in confronting this French policy. The difference between the two policies occurred in the methods, foundations, methods and ruling objectives. This is what we will discuss in this research paper by tracing the stages of the educational policy of the Association of Scholars and comparing it with its French counterpart by relying on the historical approach. Therefore, light must be highlighted on the role of the Association's schools in confronting the French Westernization policy, as well as the contribution of the first in creating an elite imbued with the spirit of struggle and jihad to achieve independence.

Keywords: The school . Education education. National Identity . educational policy.

● مقدمة

نظرا لأهمية التعليم في حياة المجتمع فإن السياسة التعليمية تلعب دورا كبيرا في تكوين نخبة هذا المجتمع وبلورة آرائها تجاه قضاياها المصيرية. غير أن هذه السياسة من الجانب التاريخي في الجزائر الكولونيالية لها بعدها الخاص، كونه يدخل ضمن السياسة الاستعمارية للسيطرة على الشعب الجزائري، فكان واقع تعليم الجزائريين في ظل التشريعات الفرنسية خلال فترة الاحتلال بعيدا كل البعد عن مقومات الشخصية الجزائرية في بعديها العربي والإسلامي، إذ سعت السلطات الفرنسية جاهدة للقضاء على الهوية الثقافية الجزائرية ومكوناتها، متبعة عدة أساليب وسياسات وقوانين، كما عملت على تبني سياسة تعليمية يستفيد منها الأقلية فقط في محاولة لتكريس سياستها الادماجية، والتي لا تخرج عن كونها مجرد مبادرات فرنسية لم تخرج عن اطار محاولة فرنسة الشعب الجزائري، وتوظيف المدرسة كوسيلة لتكريس سيطرتها الاستعمارية على المجتمع الجزائري. ومع ظهور جمعية العلماء المسلمين عملت على مواجهة أهداف ومناهج التعليم الفرنسي، لأنها تحمل في برنامجها الحرص الشديد على تمسك الجزائريين بالقيم الإسلامية والتقاليد العربية، مستغلة بوادر نهضة التي حدثت في الجزائر ونشاط النخبة المثقفة الوطنية وبعض المخلصين الذين أسسوا الجمعيات والنوادي من أجل نشر التعليم العربي لمحاربة مخزجات التعليم الفرنسي .

-أهداف الدراسة : نسعى من خلال هذه الدراسة إلى:

- تسليط الضوء على السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر .
- التعرف على مجهودات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مجال التعليم.
- المقارنة بين مخزجات السياسة التعليمية لجمعية العلماء المسلمين ونظيرتها الفرنسية .
- الوقوف على الصعوبات التي واجهتها جمعية العلماء في سبيل تحقيق رسالتها .

الإشكالية:اهتمت جمعية العلماء المسلمين بالجانب التعليمي خاصة مع تزايد نسبة الأمية في أوساط الجزائريين لرفضهم الالتحاق بالمدارس الفرنسية من جهة ولتخوف العائلات الجزائرية من محتوى المناهج التعليمية الفرنسية، فوضعت الجمعية سياسة تعليمية تتماشى ومقومات المجتمع الجزائري لمواجهة النزعة التعليمية المفرنسة ؛ فحدثت المفارقة بين السياستين في الطرق والأسس والمناهج والأهداف المسطرة. من هذا المنطلق نطرح الإشكال التالي: **ما مدى نجاح السياسة التعليمية لجمعية العلماء في مواجهة السياسة التعليمية الفرنسية ذات البعد الادماجي ؟**

المنهج المتبع: اقتضت الدراسة اتباع المنهج التاريخي، من خلال تتبع مراحل تطبيق السياسة التعليمية الفرنسية وكذا النشاط التربوي والتعليمي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وتحليل جهود الأخيرة في هذا المجال ، كما تم المقارنة بين السياستين وأهدافهما ومخرجاتهما.

1. السياسة التعليمية الفرنسية:

لقد أثبتت كل الدراسات التاريخية على انتشار التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، حيث أن الدراسات الفرنسية للمجتمع الجزائري أكدت على أن نسبة التعليم كان تفوق 90% بسبب انتشار المراكز التعليمية لذا أصدرت فرنسا القوانين من أجل القضاء على التعليم العربي وتبني سياسة تعليمية فرنسية تتماشى وخططها الاستعمارية منذ احتلال فرنسا للجزائر في 05 جويلية 1830 اعتمدت في تكريس سياستها الاستيطانية على وضع قوانين خاصة بدءاً من سياسة سلب الأراضي وهدم المساجد وتهجير الشعب، وصولاً إلى السياسة الهدامة لمقومات المجتمع الجزائري المسلم، وهي السياسة التعليمية التي حاولت فرضها على الشعب الجزائري، و كان في مقدمة ذلك قانون الأهالي 1871م، وهو مجموعة من العقوبات الخاصة بتحديد قوائم تزداد وتنقص عدد المخالفات فيها على حسب الحاجة والضرورة⁽¹⁾.

لقد كانت أسطورة الإدماج تأخذ شكلاً من الانتشار السريع، ووجدت فرنسا ضالتها فيه خاصة بعد تقبل بعض الجزائريين الذين كانوا يعتقدون أن فرنسا ستجعل منهم فرنسيين بالقانون الأساسي واللغة والثقافة والتطوعات، وكانت هذه الطريقة ربما ستنتج لو لم تلق المعارضة والإصلاحات التي اعتمد عليها وطبقها الجزائريون فيما بعد⁽²⁾.

1-1 مراحل إرساء السياسة التعليمية الفرنسية:

وجهت الإدارة الفرنسية ضربة قاضية للمنظومة التعليمية التي كانت قائمة، عندما استولت على الأملاك الوقفية التابعة للمؤسسات التعليمية، وهو إجراء بمثابة قطع شريان الحياة لتلك المؤسسات التي سرعان ما انهارت واندثرت من جراء ذلك⁽³⁾. وقد اختلف الفرنسيون حول الجبهة العلمية، والظاهر أن اختلافهم كان من أجل تغطية نواياهم حول قضية الأوقاف والمساجد، فبعد سيطرتها على مصائر رجال الدين بعد استيلائها على الأوقاف كان الهدف هو تعليم الأطفال اللغة الفرنسية في المدارس القرآنية⁽⁴⁾، وهو موقف لم يلق تأييداً من طرف الجزائريين الذين هوجموا واضطهدوا من طرف القادة الفرنسيين في الجزائر، حيث وصل الأمر إلى حد استبعادهم خاصة العلماء منهم.

بعد هذا التدهور الذي عرفه التعليم في الجزائر تم إصدار مرسوم 14 جويلية 1850 ينص على إنشاء مدارس لتعليم الجزائريين والفرنسيين على حد سواء ولكن هذا النوع من المدارس يغذي الفكرة الاستعمارية أكثر مما كان الهدف منها تعليمي، حيث كان موجهاً لأبناء القياد والموالين لها من الجزائريين وهذا النوع من التعليم مارسه السلطة الاستعمارية بطريقتين:

الأولى: بإنشاء المدارس العربية - الفرنسية ذات التعليم المزدوج وكان يدرس فيها معلمين أحدهما جزائري والآخر فرنسي ويشرف عليها مدير فرنسي. كان عددها ست (06) مدارس ابتدائية في كل من مدن الجزائر، قسنطينة، وهران، عنابة، مستغانم والبليدة، على نفقة الحكومة والتعليم فيها يكون مجانياً⁽⁵⁾.

1- جمال قنان- قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر - المجلد الرابع- منشورات وزارة المجاهدين - الجزائر - 2009-ص 140.

2- محمد الشريف ساحلي- تلخيص التاريخ من الاستعمار- تعريب: محمد الشريف بن دالي حسين- دار القصبة للنشر - الجزائر - 2013-ص 114.

3- جمال قنان -التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار- دراسات في التاريخ المعاصر - المجلد 06- منشورات وزارة المجاهدين - الجزائر - 2009-ص 13.

4- أبو القاسم سعد الله -أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر - ج2- دار البصائر - الجزائر - 2007-ص 23.

5- جمال قنان- التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار- دراسات في التاريخ المعاصر - مرجع سابق-ص 30.

الثانية: يتم إرسال بعثات إلى فرنسا قصد تذويهم في المجتمع الأوروبي وإعادة تم لهم للجزائر لتسخيرهم كطلّاع أولى لنشر الفكر الغربي بالجزائر ومن أجل تطبيق هذه الفكرة صدر قرار ملكي في 11/09/1839 القاضي بتأسيس معهد خاص للعرب بباريس، ولكن قوبل بالرفض لمقاومة بعض الفرنسيين له من جهة ورفض الجزائريين له من جهة أخرى⁽¹⁾.

الجدير بالذكر أنه في هذه المرحلة من الاحتلال كانت متزامنة مع الممارسات الفرنسية العسكرية الوحشية تجاه الجزائريين، لم تقم السلطات الاستعمارية بوضع خطة لنشر التعليم الفرنسي بينهم، كما أنها منعت التعليم العربي الإسلامي، وقد انتشرت في هذه الفترة عدة آراء حول تعليم الجزائريين من عدمه، ولكنها تنحصر كلها في رأيين مهمين: الأول منهما يرى ضرورة تعليم الجزائريين وكسبهم للصالح الفرنسي لأن تركهم في الجهل يسبب وجود جيش من المتعصبين، أما الرأي الثاني فقد عارض تعليمهم حيث يرى فيهم أعداء يجب إبعادهم إلى المناطق النائية والصحراوية⁽²⁾.

الجدول رقم: 01 يوضح إحصائيات حول التعليم الأهلي (المدارس المزدوجة):

السنوات	التعليم الابتدائي	عدد المدارس
1882	3.172	16
1883	4.095	/
1887	9.064	43
1891	11.347	/
1892	12.263	124
1893	19.885	138
1894	16794	163
1895	20264	78
1896	21022	182
1897	22468	187
1898	23823	199
1902	25921	/
1909-1905	31381	/
1912	42688	/

المصدر: عبد الحميد زوزو (2017)، ص 30

يظهر هذا الجدول تذبذب أعداد التلاميذ الجزائريين بين تزايد وتناقص منذ منتصف الثمانينات إلى غاية الحرب العالمية الأولى خاصة بعد صدور مرسوم 13 فيفري 1883 المتعلق بإجبارية التعليم الفرنسي⁽³⁾، وذلك راجع لعدة اعتبارات مثل رفض الجزائريين للالتحاق

¹ - عبد القادر حلوش - سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر - دار الأمة - الجزائر - 1999 - ص 42.

² - عبد الرؤوف قرناوب - جهود علماء الجزائر في الرد على سياسية التنصير إبان الاحتلال (1830-1962) - مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية - تخصص: مقارنة الأديان - جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر - 2015-2016 - ص 48.

³ - الطاهر زرهوني - التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال - موقف للنشر - الجزائر - 1993 - ص 14.

بالمدارس التابعة للحكومة الفرنسية، وعدم القدرة على تحمل مصاريف الدراسة، بالإضافة إلى نقص المدارس المخصصة لتعليم الجزائريين مقارنة بالمخصصة للمستوطنين رغم محاولة بعد الحكام الفرنسيين. كانت السياسة التعليمية منذ انطلاقها إلى غاية الثورة التحريرية، تشهد تذبذبا في عدد المدارس المخصصة للجزائريين، وكذا عدد التلاميذ الجزائريين، رغم محالة بعد الحكام تحسين التعليم، إلا أن ذلك لم يلقى نجاحا كبيرا.

لقد كانت فرنسا تأمل بوجه خاص أن تغزو الجزائر أخلاقيا عن طريق المدرسة، وقد ورثت الجمهورية الثالثة سياسة أهلية في إنشاء المدارس، ففي عام 1870 كانت تعمل 36 مدرسة ابتدائية عربية فرنسية (1300 تلميذ مسلم)، ومعهدان عربيان فرنسيان وثلاث مدارس دينية إسلامية، ولكن جمهوري الجزائر توصلوا إلى إغلاق المدارس والمعاهد العربية وتركوا المدارس الدينية تضعف⁽¹⁾.

أما بالنسبة لتعليم البنات، فقد نص المرسوم التأسيس على إنشاء أربعة مدارس عربية فرنسية خاصة بهن، ولكن في الواقع لم تنشئ سوى مدرستان إحداهما في العاصمة والأخرى في قسنطينة، وعند نهاية مرحلة 1870 لم تبقى سوى مدرسة قسنطينة مفتوحة التي كانت تستقبل حوالي 80 طفلة⁽²⁾. واستناداً إلى المرسوم الصادر في 15 أوت 1875 والذي بموجبه منحت للوالي العام صلاحيات تنظيم التعليم الأهلي بمختلف فروع ومستوياته، وهو المرسوم الذي أعطى سنداً قانونياً وأضفى شرعية للإجراءات التي اتخذت قبل هذا التاريخ بخصوص المعاهد الثانوية والمدارس العربية الفرنسية، ويمكن التمييز في مسار التعليم الأهلي بين مرحلتين، الأولى من سنة 1883 إلى 1891 وهي المرحلة التي شهدت نوعاً من الشد والجذب بين وزارة التعليم العام على المستوى المركزي وبين المستوطنين الذين يرفضون فكرة تعليم الجزائريين، أما المرحلة الثانية فتستمر إلى غاية 1944 وتتجسد بنوع من التوافق غير المعلن بين الجانبين⁽³⁾.

وبين سنوات 1900-1914 شهدت الجزائر ظهور النخبة المثقفة بالفرنسية، وانتعاش الثقافة الوطنية عن طريق العلماء، وميلاد الصحافة الوطنية وتكوين الجمعيات السياسية، ومقاومة عنيفة للقوانين والمراسيم الفرنسية، ومنذ نهاية الحرب العالمية الأولى أصبحت أكثر قوة وعزيمة للدفاع عن حقوقها بكل الأشكال السياسية والإصلاحية⁽⁴⁾.

1-2. برنامج ومناهج المدرسة الفرنسية:

منذ 1870 أصبحت المدارس الشرعية تحت الإدارة الفرنسية المحصنة ولها برنامج ومنهج فرنسي كاملاً، رغم تخريجها إطاراً جزائرياً لخدمة الديانة الإسلامية والقضاء والتعليم خاصة بعد فرض شروطهم على الاستمرار في تدريس اللغة العربية والعلوم الإنسانية. إذ يقول "لويس رين": «كان القرآن في الجزائر هو كل شيء، هو المعلم والتعليم، وكان الفرنسيون كلما حاولوا مشروع إصلاح فكروا في عدم المس بالمشاعر الإسلامية، لكن المتعلمين (الجزائريين) الخبراء أصبحوا بمرور الزمان نادرين، مما سهل على فرنسا تمرير مشاريعها، لقد كان هدف فرنسا منذ 1830 هو الحط من التعليم القرآني وتعويضه تدريجياً بتعليم أكثر عقلنة وأكثر علمية، وبالمختص أكثر فرنسية،

¹ - شارل روبر أجيرون- تاريخ الجزائر المعاصرة- ترجمة: عيسى عصفور- منشورات عويدات- بيروت- لبنان- 1982- ص 113.

² - جمال قنان- التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار- مرجع سابق- ص 35.

³ - المرجع نفسه- ص- 64، 72.

⁴ - أبو القاسم سعد الله- أمجاد وآراء في تاريخ الجزائر - مرجع سابق- ص 134.

وقد نجحت فرنسا في الفصل بين الدين والتعليم اللذين كانا في الماضي لا ينفصلان»⁽¹⁾. ومن أسس المناهج المدرسية في السياسة التعليمية الفرنسية نذكر:

- إن التأطير التربوي الفرنسي يشتمل على صنفين من الموظفين، موظفون دائمون والمتعاونون من الخارج، فالصنف الأول يضم المدير الذي يقوم في نفس الوقت بتدريس إحدى المواد، وثلاثة نواب معلمين إلى جانب مدير المدرسة الابتدائية الملحق بمدرسة تكوين المعلمين، والصنف الثاني هم مدرسو مواد العربية، الزراعة التطبيقية، البستنة، التربية البدنية، وملقن الأناشيد، ألحق بالمدرسة واعظ مسيحي، وإمام مسلم للتكفل بالمشاعر الدينية كل حسب عقيدته، كما تم تحديد عناوين الكتب المقررة لتغطية مختلف المواد⁽²⁾.
- يحتوي برنامج التعليم في المدارس المزدوجة على اللغة العربية والفرنسية، الحساب نظام الموازين والمكاييل والمقاييس إلى جانب معلومات عامة في التاريخ والجغرافيا، يشرف عليها لجنة مكونة من ثلاثة أعضاء هم: شيخ البلدية أو قاضي الصلح، المفتي أو القاضي وعضو يعين من طرف عامل العمالة، هذا إضافة إلى أنه توجد هيئة أخرى مكلفة بالتفتيش والمراقبة تتشكل من ضابط أو موظف مدني فرنسي وعون مسلم⁽³⁾.
- يتضمن منهاج التعليم الفرنسي جانبين: نظري وتطبيقي، فالتعليم النظري يتضمن القراءة، الكتاب بالفرنسية، الحساب، إلى جانب مبادئ أولية في البيطرة، أما التعليم التطبيقي فقد وجه أساسا نحو الزراعة والبستنة إلى جانب الأشغال اليدوية المتعلقة بمهدين القطاعين⁽⁴⁾.

- اشتراط الرخصة لتعليم اللغة العربية على إثر إصدار قانون 24 ديسمبر 1904 ، والذي ينص على: "عدم السماح لأي معلم مسلم أن يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية بدون رخصة منحه إياها عامل الولاية، أو قائد الفيلق العسكري. ويعد فتح مكتب بدون رخصة اعتداء على حدود القوانين الخاصة بالأهالي". وبعد ذلك وضعت سلطات الاحتلال عراقيل لمنح الرخصة فكان على المعلمين التعرض لمواقف صعبة والرضوخ لشروط مهينة، يلتزم بتنفيذها نصا وروحا في مدرسته، حتى يحصل على رخصة التعليم القانونية، ومن تلك الشروط نذكر:

أ - اقتصار التعليم على تحفيظ القرآن لا أكثر .

- ب - عدم التعرض بأي وجه كان إلى تفسير الآيات القرآنية، وخاصة تلك التي تحض على الجهاد في سبيل الله، وتدعو إلى محاربة الظلم والاستبداد .

ج - استبعاد تدريس تاريخ الجزائر، والتاريخ العريب الإسلامي وجغرافية الجزائر والبالد العربية

د- استبعاد الأدب العربي، بجميع علومه، والامتناع عن تعليم المواد العلمية والرياضية.

- و- فرض السلطات على حامل الرخصة أن ييث روح السخط والاشتمزاز من الثقافة العربية والإسلامية بين الناشئة، وأن يخلص للسلطة الاستعمارية.

¹ - أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)- ج 3 - ط 1- دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان - 1982 - ص 22-23.

² - جمال قنان - المرجع السابق- ص 42-43.

³ - نفسه- ص 30-31

⁴ - نفسه ص 44.

و-لا يجوز لمكاتب التعليم العربية أن تفتح أبوابها للأولاد الذين هم في سن التعليم أثناء ساعات التعليم في المكتب الفرنسي⁽¹⁾.

أمام هذه الأوضاع المأساوية التي عاشتها الجزائر من ناحية التعليم تدهورت الحياة الثقافية خاصة مع تعرض هجرة أفراد النخبة الجزائرية أو التعرض للنفي والتهجير أو السجن والقتل؛ مما جعل فرنسا تسعى إلى خلق نخبة أخرى تكون موالية لها تجعلها وسيطة بينها وبين الشعب تساعد على بسط سياستها.

1-3. أسس وأهداف السياسة التعليمية الفرنسية

إن السياسة التعليمية التي انتهجتها فرنسا في الجزائر كانت تركز على ثلاثة محاور وأهداف أساسية هي الفرنسية والتنصير والإدماج ويقصد بالفرنسية إحلال الثقافة الفرنسية محل الثقافة العربية الإسلامية حتى ينسى الجزائريون لغتهم وقوميتهم ويستبدلوها بثقافة ولغة المستعمر والهدف الأساس من هذه السياسة هو صبغ البلاد بصبغة فرنسية ويقضى على الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا فيصبح أهلها أكثر انقيادا وقابلية لسياسة الفرنسية والإدماج النهائي، هذا وقد دلت الإحصائيات أنه بعد الحرب ع 2 يوجد 9% فقط من الجزائريين يعرفون الكتابة والقراءة وظلت نسبة الأمية مرتفعة، وهذا الكلام أكدته بعض الدراسات الفرنسية الموضوعية التي بينت أنه وبعد قرن من الاحتلال الاستعماري للجزائر شهد الوضع الثقافي ترديا لا مثيل له حيث وصلت نسبة الأمية في حدود 90 % سنة 1948 و 86,30 % في 1954⁽²⁾. ولابد من التنبيه هنا إلى أن هذه السياسات التعليمية التي استعملتها فرنسا في كامل التراب الجزائري قد باءت بالفشل ولكي تعوض هذه الخسارة ارتأت تركيز جهودها على منطقة معينة، فوقع الاختيار على منطقة القبائل لاعتقادها سهولة نشر أفكارها وتعاليمها وتحقيق أغراضها مما ولد فيما بعد بما يسمى الأزمة البربرية⁽³⁾. وهذا التعليم كان يخدم الثقافة الاستعمارية ولم تظهر فيها الروح الوطنية الجزائرية، مما خلق عددا لا يستهان به من الإنجليجنسيا والفرونكفونية الجزائرية التي ظلت متمسكة إلى الرق الأخير بفكرة ضرورة إلحاق الجزائر بفرنسا أو بما يسمى بفكرتي الدمج والتكامل أو الإلحاق⁽⁴⁾.

إن الإدارة الفرنسية سعت من خلال سياستها التعليمية إلى خلق نخبة تساعد على تحويل المجتمع الجزائري بإنشاء مدرسة فرنسية والتضييق على المؤسسات العلمية العربية؛ ولأجل ذلك لجأت إلى العديد من الحيل والخدع ومن بينها مصادرة الأوقاف التي كانت الممول الرئيسي لهذه المؤسسات العلمية، وفي نفس الصدد فإن الحرب التي كانت قائمة منعت هؤلاء المعلمين أو الطلاب من مزاوله التعليم، لذا فقد أثرت هذه الممارسات مباشرة على التعليم وعلى الميدان الثقافي عموما، وأكثر من ذلك أصبحت هجرة المدرسين وتركهم للمدارس من المظاهر العادية والمألوفة، كما أصبح شغل العائلات هو ضمان الخبز لأولادها قبل

¹ - إلياس بولفخاد- أبوبكر لشهب -" وسطية مناهج التعليم عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين " - مجلة العلوم القانونية والاجتماعية-ع9- ج1-جامعة زيان عاشور-الجلقة- مارس 2018- ص 323-324.

² - عبد الله حمادي- الحركة الطلابية الجزائرية 1870-1962 مشارب ثقافية وإيديولوجية-ط2- منشورات المتحف الوطني للمجاهد- الجزائر- 1995-ص10.

³ - الأزمة البربرية: تعتبر إحدى الأزمات التي تتعلق بقضية الجهوية والهوية في حد ذاتها، وهو ما شكّل خطرا ليس فقط على وحدة الجزائريين، مما أدى إلى بروز مشكلات مهمة مست بشكل وثيق العلاقة بين السياسة والمسألة الثقافية البربرية، وتركت عواقب وخيمة بشأن النزعة القومية الشعبية وبعض العناصر التي كان واقعة تحت تأثير الدعاية الفرنسية عن طريق ما يعرف باسم " السياسة القبائلية " التي انتهجتها الإدارة الفرنسية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، عندما انضم مجموعة من الشبان من القبائل إلى التيار الاستقلالي يحملون أيديولوجية مغايرة للحركة الوطنية تطالب بالبربرية للجزائر مع رفض الانتماء العربي الإسلامي ، متأثرين بالإيديولوجية الشيوعية مما خلق صراعات داخل الحزب الواحد. للاستزادة ينظر :أحمد بن النعمان- فرنسا والأطروحات البربرية في الجزائر (الخلفيات -الأهداف- الوسائل-البدايل)- منشورات دار دحلج- الجزائر-1991-ص118.

⁴ - عبد الرؤوف قرنا- المرجع السابق- ص51.

تعليمهم، ومنه فالظروف الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي أثّرت على مستوى معيشة الناس وأفقرتهم هي نفسها التي كانت سبب تدمير الثقافة والتعليم في الجزائر⁽¹⁾.

لقد كان للإدارة الاستعمارية ما أرادت إذ تخرج من هذه المدارس عدة أصناف من النخبة الجزائرية؛ فهناك الجناح الفرونكوفولي المؤيد للثقافة الفرنسية والداعي إلى تساوي الحقوق والواجبات، والجناح الفرونكوفيلي المتشبع بالثقافة الفرنسية والداعي للاندماج أمثال الشريف بن حبيس⁽²⁾، وكذلك الجناح الفرونكولائكي المرتد عن الدين الإسلامي والمسمى بالبربري الانفصالي، وخير ممثل له هو بلقاسم إبعيزن الذي تخلى عن اسمه ودينه، وأصبح يعرف باسم أوغسطين وأيضاً المحامي حنفي لحمك⁽³⁾. وعليه يبرز السؤال التالي: ما هي مرجعيات تشكل التيارات المذكورة بالمدارس والجامعات الفرنسية؟ وكيف كانت علاقتهم بالإدارة الاستعمارية؟ وما هو موقفهم من القضية الوطنية؟

2. السياسة التعليمية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

على الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء الخامس ماي 1931 اجتمع بنادي الترقى بالجزائر العاصمة اثنان وسبعون عالماً لوضع القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومن مقاصدها جمع شمل الجزائريين للتعاون على ما هي مهياة له من نصح الأمة وإرشادها لما ينفعها في دينها ودنياها⁽⁴⁾، فمبدؤها إصلاح ديني إذ هو فكرة معتصرة من حال الأمة الجزائرية المسلمة القابلة للتطور، حيث اقتضى الوجود ذلك، فقد أسست لأن تجعل من عناصر الأمة الجزائرية لها قواعد وأصول. إن المجلس الإداري للجمعية المنعقد بمكتبها في قسنطينة يوم 17 أكتوبر 1931 قد قرر استمرار التعليم المسجدي الديني لتلامذتها، وهو حريص أشد الحرص على ذلك، فالجمعية تتشرف بحمل لواء الإصلاح الديني بالدعوة إلى نشره وتحقيقه، وفق برنامج عملي في التعليم الإسلامي على حقيقته من الكتاب والسنة، وفي نشر الفضائل والأخلاق القرآنية، وما يقتضيه ذلك من محاربة للبدع والخرافات والجمود والردائل والمحرمات⁽⁵⁾، وفي تعليم اللغة العربية الفصحى على أنها لغة الدين ومفتاحه، لا تفهم حقائقه وحكمه إلا بها، وما يقتضيه ذلك من إحياء للأدب العربية الراقية، وهي دأية في تنفيذ برنامجها بقدر ما يتسع له الإمكان ومغالبة العراقيل⁽⁶⁾.

بظهور جمعية العلماء المسلمين عرف التعليم العربي فقرة نوعية بانتشار المدارس العربية وإرسال البعثات للدول العربية، فنجحت كثيرا في نشر التربية والتعليم والتكوين في وسط الجزائريين، بالرغم من ضغوطات الإدارة الفرنسية للحد من نشاط المدارس العربية التابعة للجمعية، ومن بين المشاكل التي واجهتها الجمعية المرسوم الفرنسي المؤرخ في 8 مارس 1938 الذي شدد المراقبة على تعليم الإسلام بالجزائر ومنع مدارس الإصلاح التي استحدثت من قبل الجمعية من ممارسة نشاطها في الأرياف والمدن، كما أن مدارس جمعية العلماء

¹ - عبد القادر حلوش - سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر - المرجع السابق - ص 66.

² - الشريف بن حبيس: قاضي وهو من نخب بداية القرن العشرين ينتمي إلى عائلة ثرية، تابع دراسته الثانوية في قسنطينة، ثم جامعة الجزائر وتحصل على الدكتوراه في الحقوق، متجنس بالجنسية الفرنسية، تشبع بالثقافة الغربية وخدمها في نشاطه الطلابي والسياسي، له عدة مؤلفاته منها الأرواح النائية، "الجزائر الفرنسية في نظر أهلي"، "العدالة الإسلامية"، وخلال الثورة اغتيل بفرنسا. للاستزادة ينظر: عبد الحميد زوزو - الثقافة والتعليم الحر والرسمي في العهد الفرنسي - دار للطباعة والنشر والتوزيع - الجزائر - 2017 - ص 133-134.

³ - عبد الله حمادي، المرجع السابق - ص 78-83.

⁴ - أحمد طالب الإبراهيمي - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1929-1940) - ج 01 - دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان - 1997 - ص 74.

⁵ - نفسه - ص 93 - 94.

⁶ - نفسه - ص 133.

المسلمين الجزائريين كانت تعتمد على إستراتيجية مزدوجة في تربية وتعليم وتكوين الأمة الجزائرية امتزج فيها التعليم التقليدي بالعلوم الأخرى، وهذه الإستراتيجية كانت تكمن في تعليم علوم الإسلام واللغة العربية مدعمة بتكوين في الحساب والتاريخ والجغرافيا⁽¹⁾.

2-1. مدارس جمعية العلماء المسلمين :

سعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الى بناء المدارس لمواجهة المشروع الفرنسي التغريبي الاستعماري، لتكون هذه المدارس شلعة للتعليم العربي وانارة الطريق لنخبة من افراد المجتمع من اجل السعي في طريق الكفاح والتحرر من قيود الاحتلال الثقافي والعسكري والاقتصادي ... الخ، ومن أهم المدارس التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين في إطار التعليم العربي الحر نجد:

- مدرسة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة، التي كانت بمثابة النواة الرئيسية للمشروع التربوي في منطقة الشرق الجزائري.
- دار الحديث بتلمسان، تأسست عام 1937 وهي من أكبر المدارس التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالغرب الجزائري .
- المدرسة الموقفية في مدينة سكيكدة .
- مدرسة الإخاء بمدينة بسكرة والتي كانت تسميها بمدرسة الإخاء تعبيراً عن روح الأخوة والتضامن⁽²⁾.
- فتح المعهد الباديدي أبوابه مستقبلاً مدرّسيه وطلابه، وبدأ نشاطه في سنته الأولى 1947، ولكنه نشاط من جهة واحدة من المدير والمدرسين، ولم يبدأ النشاط من الجهة الثانية التلاميذ إلا في النصف الأخير من السنة الدراسية، حيث فهموا ما قرأوا، وبدأوا يهضمونه على تفاوت أسنانهم، حيث امتازت تلك السنة بالعديد من الامتيازات نوجزها فيما يلي⁽³⁾:

✓ إنشاء السنة الرابعة التي يحصل التلميذ في نهايتها على الشهادة الأهلية.

✓ زيادة المدرسين الأكفاء المتخرجين من جامع الزيتونة.

✓ تحسين برنامج الرياضيات وعلوم الحياة بإسناد تعليمها إلى مدرسين أكفاء مثقفين بالثقافتين.

✓ تحسين النظام الداخلي والدراسي.

✓ مراقبة التلاميذ أخلاقياً.

✓ شراء البنايات وفقاً على المعهد لإسكان المشايخ والطلبة الذين وصلوا إلى حوالي 160 طالباً في سنتهم الأولى⁽⁴⁾.

- كما تأسست الجمعيات لرعاية تلك المؤسسات حتى أصبحت معاهد للتعليم الحر في فترة وجيزة وانتشرت في كل المدن والأرياف والقرى، إن المدارس التي أنشأها عبد الحميد ابن باديس بالجزائر كثيرة جداً، يضيق المقام لسردها كلها، وقد اكتفينا بما اشتهر منها.
- لقد ذكر مراد قبال أن جمعية العلماء كانت تؤمن بأن نشر الإصلاح الديني والفكري لا يمكن أن يتخذ سبيله إلى عقول الناس إلا إذا كان مصحوباً بالتعليم؛ ومن هنا كان فتح مدارس عربية حرة في مختلف المدن والقرى الجزائرية. وقدم بعض الإحصائيات التي تؤكد على

¹ - شارلوت كوراي - "جمعية العلماء المسلمين نجحت في نشر التعليم رغم عقبات الاستعمار" - جريدة الفجر - الجزائر - 2013/6/18، تم الاطلاع يوم 2017/8/23 في الساعة 11:00 متاح على الموقع <http://www.al-fadjr.com/ar/index.php?news=247616?print>

² - آسيا بلحسين رحوي - "وضعية التعليم الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي" - مجلة دراسات نفسية وتربوية - مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية - ع 7 - ديسمبر 2011 - جامعة قاصدي مرباح - ورقلة - الجزائر - ص 79.

³ - مولود عوتم - "مدارس ومعاهد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" - مجلة البصائر - ع 871، 21-5-1432هـ - تم الاطلاع يوم 2017/8/23 على الساعة 13.00 - متاح على الموقع <http://www1.albassair.org/modules.php?name=News&file=article&sid=2179>

⁴ - نفسه - ص 97.

ارتفاع عدد المدارس والتلاميذ والمعلمين بشكل مطرد حتى بلغ في سنة 1955 حوالي 400 مدرسة، يقصدها حوالي 75 ألف تلميذ بين الذكور والإناث، ويدرس بها 700 معلم⁽¹⁾.

لم يقتصر نشاط الجمعية داخل الجزائر بل توسع حتى في التراب الفرنسي حيث يعيش ما يقرب من ربع مليون جزائري، منهم 32 حوالي عشرين ألف طفل في أمس الحاجة إلى الارتباط بدينهم ولغتهم، لكن الإدارة الاستعمارية كانت لها بالمرصاد ومنعتها من تجسيد برنامجها على أرض الواقع⁽²⁾.

لعبت الجمعية دورا بارزا في تعليم الكبار والشباب والفتيات، باعتماد أقسام مختلطة وكذا دروس محو الأمية للنساء بمسجد "سيدي لخضر" بقسنطينة، وتشجيع الشباب على التكوين في الحرف، فضلا عن الأنشطة الرياضية والثقافية، منها المسرح من تنظيم جمعيات كان أعضائها تابعين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وطرق التدريس المعتمدة من قبل الجمعية كانت تركز في مرحلتها الأولى على كتيبات بيداغوجية مصرية لتتنجز بعدها أخرى مواضيعها مستوحاة من تاريخ وشخصيات جزائرية، وكذا الإمكانات المادية التي كانت تخصصها لفتح المدارس من اشتراكات أعضائها أو من التجار تضامنا مع الجمعية⁽³⁾.

لا يمكن إنكار مساهمة جمعية العلماء المسلمين في نشر التعليم متصدية للسياسة الاستعمارية التغريبية التي أرادت فصل المجتمع الجزائري عن انتمائه الحضاري بكل أبعاده، فوصلت مدارسها حتى إلى الجنوب وكل ذلك بفضل نخبة من المثقفين الإصلاحيين يقودهم عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي والطيب العقبي والعربي التبسي، فأنتجت نخبة مثقفة متشعبة بالقيم الدينية والوطنية والقومية، غرست فيها حب الوطن والجهاد، حملت لواء المقاومة والجهاد والكفاح ضد المستعمر.

2-3. محتوى مناهج مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

استمدت مدارس جمعية العلماء مناهجها وبرامجها من مبادئها وهي: الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا⁽⁴⁾. فبنيت على ثلاثة أسس وهي:

- تربية إسلامية متينة منظمة بواسطة القرآن الكريم والسنة النبوية تبنى التربية الإسلامية والتعليم الديني والأخلاقي
- ثقافة عربية ابتدائية القائمة على القواعد والمطالعة والتحرير والإنشاء.
- مبادئ أولية للمعارف العلمية⁽⁵⁾.

وقسمت مراحل التعليم في مدارس الجمعية على النحو التالي :

- القسم التحضيري: ومدة الدراسة به سنتان.
- القسم الابتدائي: ومدة الدراسة به سنتان.
- القسم المتوسط: ومدة الدراسة به سنتان.

¹ - مولود عومر - الموقع السابق.

² - إلياس بولغفاذ - أبوبكر لشهب - المرجع السابق - ص 326.

³ - شارلوت كوراي - الموقع السابق.

⁴ - مولود عومر - الموقع السابق

⁵ - رابح تركي - التعليم القومي والشخصية الوطنية - الشركة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1975 - ص 276.

الجدول رقم 02: يمثل جدول الدراسة في مدارس الجمعية في المرحلة التحضيرية والابتدائي:

مواد الدراسة في التحضيري	عدد الساعات الأسبوعية	مواد الدراسة في الابتدائي	عدد الساعات الأسبوعية
التعليم الديني والخلقي	02 ساعة	التعليم الديني والخلقي	02 ساعة
قراءة	07.5 ساعات	قراءة	05 ساعات
لغة محادثة	02 ساعة	لغة عربية: - النحو	02.5 ساعة
الخط العربي	05 ساعات	- محادثة	02.5 ساعة
محفوظات وأناشيد	0.5 ساعة	- إملاء	0.5 ساعة
حساب	05 ساعات	- محفوظات	0.5 ساعة
رسم	01.5 ساعة	الخط العربي	02 ساعة
أشغال يدوية	01 ساعة	تاريخ- جغرافيا	02 ساعة، ساعة لكل مادة
تمارين رياضية استراحة	05 ساعات	درس المشاهدة	01 ساعة
		حساب	05 ساعات
المجموع	30 ساعة	المجموع	30 ساعة

المصدر: رابع تركي، (1975)، ص 279.

يلاحظ من خلال جدول توزيع مواد الدراسة تركيز مدارس الجمعية في هذا المستوى على المواد ذات الصلة بمقومات الأمة، الدين، اللغة وهي أساس التنشئة. كما أنها لم تحمل المواد الثانوية للتنمية المواهب لدى التلاميذ على غرار المواد الترفيهية كالترفيه الفنية والرياضية .

أما القسم المتوسط فيتكون بدوره من سنتين تقدم نفس المواد التعليمية مع زيادة في الحجم الساعي حسب ما تقتضي طبيعة القسم وفق الجدول الموالي.

الجدول رقم 03: يمثل جدول الدراسة في مدارس الجمعية في المرحلة التعليم المتوسط⁽¹⁾:

مواد الدراسة	عدد الساعات الأسبوعية
التربية الدينية والخلقية	02 ساعة
المطالعة	03 ساعات
لغة عربية: - النحو	02.5 ساعة
- تمارين نحوية	02 ساعة
- محادثة	01.5 ساعة
- إنشاء	01 ساعة
- إملاء	02 ساعة
تاريخ	01 ساعة
جغرافيا	01 ساعة
خصائص أشياء علوم طبيعية	02 ساعة
حساب، هندسة	05 ساعات
رسم	01.5 ساعة

أشغال يدوية	01.5 ساعة
تمارين رياضية، استراحة	05 ساعات
المجموع	30 ساعة

المصدر: رايح تركي، (1975)، ص 03.

الملاحظ في هاته المرحلة هو زيادة الحجم الساعي للمواد الأساسية مع إدراج مادتي التاريخ والجغرافيا بحكم أهميتها في التعريف بالهوية التاريخية للمجتمع الجزائري والبعد الحضاري للجزائر لمواجهة ما تروج له المدارس الفرنسية من تعليم التلاميذ التاريخ الروماني والبيزنطي، وأيضا تدريس المواد العلمية والرياضيات وهما يدل على أن مناهج الجمعية كانت شاملة ولم تقتصر على التعليم الديني فقط. من كل ما سبق نستخلص أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عمدت من خلال مقرراتها عبر كل المراحل التعليمية لمدارسها إلى تلقين التلاميذ أبسط القواعد بأسهل التركيب، والإكثار من التمارين التطبيقية التي تساعد على الفهم وتثبيتته في الأذهان، وتربية ملكة الذوق والاستنتاج لديهم.

لقد أسهمت مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال سياستها التعليمية في تكوين جيل من الشباب تربي تربية إسلامية عربية وفق مكونات الشخصية القومية الجزائرية، جيل كان له دور في حمل لواء المقاومة ومكافحة الاستعمار وبعث الوعي الثوري.

● الخاتمة:

- لقد كانت السياسة التعليمية الفرنسية تهدف إلى إدماج الشعب الجزائري وخلق نخبة جزائرية تساعد الإدارة الاستعمارية في تنفيذ هذه الخطة الإدماجية لتضمن عدم وقوع أي مواجهة أو مقاومة ضدها في المستقبل، وقد كان التعليم الفرنسي غير متاح لكل الجزائريين.
- تمكنت فئة قليلة من الجزائريين من مزاولة تعليمها في مختلف المدارس والثانويات الفرنسية بالجزائر، وقلة منها التحقت بجامعة الجزائر أو أحد الجامعات الفرنسية، ووجود هذه الفئة يطرح أكثر من سؤال حول ظروف التحاقها بالجامعة وعلاقتها بالجزائريين عامة والجالية الأوروبية خاصة وتطور نظرتها ومواقفها اتجاه القضايا الوطنية من جهة، والاستعمار الفرنسي من جهة أخرى، خاصة وأنها على احتكاك دائم بأوساط المثقفين الفرنسيين والإدارة الاستعمارية، بحكم وجودها في الجامعة، وارتباطها بالإدارة الاستعمارية، ومدعوة لتعزز دور الريادة بالنسبة لشعبها، ودور الوسيط بين السلطة الاستعمارية والأهالي من بني جلدتهم.
- إن السياسة التعليمية التي انتهجتها فرنسا في الجزائر كانت تركز على ثلاثة محاور وأهداف أساسية هي الفرنسة والتنصير والإدماج ويقصد بالفرنسة إحلال الثقافة الفرنسية محل الثقافة العربية الإسلامية حتى ينسى الجزائريون لغتهم وقوميتهم ويستبدلوها بثقافة ولغة المستعمر والهدف الأساس من هذه السياسة هو صبغ البلاد بصبغة فرنسية ويُقضى على الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا فيصبح أهلها أكثر انقيادا وقابلية لسياسة الفرنسة والإدماج النهائي.
- ساهمت جمعية العلماء المسلمين في نشر التعليم متصدية للسياسة الاستعمارية التغريبية التي أرادت فصل المجتمع الجزائري عن انتمائه الحضاري بكل أبعاده، فوصلت مدارسها إلى الجنوب، فأنتجت نخبة مثقفة متشعبة بالقيم الدينية والوطنية والقومية، غرست فيها حب الوطن والجهاد، حملت لواء المقاومة والجهاد والكفاح ضد المستعمر.

- إن السياسة التعليمية للجمعية جاءت لمواجهة التعليم الفرنسي، والسياسة الادمجية، هدفها المحافظة على الهوية الوطنية في إطارها العربي الإسلامي، وغرس روح الوطنية، ركزت على العلوم النقلية، وعلى قدرات المتعلم والمعلم وتمكنه من العلوم وإحياء التاريخ الوطني، أما هدفها الأساسي فهو خلق نخبة ذات أفكار قومية إسلامية قادرة على إخراج الجزائر من براثن الاستعمار.
- إن التكوين في مدارس الجمعية ساهم في خلق نخبة جزائرية مشبعة بالقيم الوطنية كرست لها الوسائل المختلفة لتركز على فكرة الإحياء والتجديد و صقل العقيدة والتفكير في قضايا المجتمع. كما أن فرنسا سمحت بتدريس اللغة العربية لجلب العديد من التلاميذ.